المقاومة والمستقبل العربي

صالح الفرجاوي - تونس

في ذكرى اندلاع الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠/٠٩/٢٨) يُثار سؤال عادل في الواقع العربي . ما هي مبرّرات المقاومة ؟؟ ما جدواها ؟؟ وهل المستقبل العربي المختلف نوعياّ عن الوضع الحالي مَوْكول بذمّة هذا الخيار أم العكس هو الصحيح ؟؟ وبالتالي فإنّ ما يطرحه "العقلانيون العرب" من خيار المهادنة والتفاوض ومسك العصا من وسطها هو الخيارُ /الخلاصُ بعيدا عن خيار المغامرة غير المحسوبة.

يعلّمنا المنهج الإنساني أن الإنسان هو قائد حركة التاريخ، وأن الإضافة النوعيّة في الواقع الاجتماعي منوطة بعُهْدَتهِ. ويُفضي بنا تطبيق هذا المنهج على مفهوم الأمة إلى أنّ الأرض هي العنصر المُحـدّد لمقولة الأمة(١). فإذا كان الإنسان هو شرط الإضافة النوعيّة في الواقع الاجتماعي، فإنّ الأرض هي الشرط/الأساس – إضافة إلى بقية الشروط الأخرى- لتحقّق مقولة الأمة في التاريخ. وحين نُولي اهتمامنا شطر الواقع العربي نقف على حقيقة ذات شقَيْنِ تستهدف شرط الوجود الأنطولوجي العربي. شقّ يهمّ الأرض وشقٌّ يطال الإنسان.

* ما يطال الإنسان :

إن المواطن العربي يعيش حالة من التناقض الصارخ بين دخله الفردي ومستوى المعيشة المفروض عليه في نُظُمٍ اقتصادية تابعة لقوى الهيمنة العالميّة، تعيش حالة من العجز المُضاعف. فهي من ناحية عاجزة على خلق توازن بين دخل المواطن وما يُفرَضُ عليه من مستوى معيشة، وهي من ناحية مقابلة عاجزة على توفير حق الشغل للكثير من مُريديهِ ومستحقيّه. وقد تجاوز هذا العجز عامّة القوم ليطال الصّفوة من حاملي الشهادات العليا العاطلين والمّعطلين عن العمل . وإن جمعيات واتحادات أصحاب الشهائد العاطلين عن العمل الموجودة في أكثر من بلد عربي (تونس ، المغرب ، مصر...) و ردّات الفعل الشعبيّة المحتجّة على هذا الواقع والتي تصل إلى حدّ المواجهة فتُواجَهُ بالرّصاص الحيّ (أحداث الحوض ألمنجمي في تونس، أحداث المحلّة في مصر....) هذه النماذج تكشف عمق الأزمة لأنظمة شارف عمرها الافتراضي على الانتهاء وعُمق مهانة المواطن العربي في ظل هذه الأنظمة.

من جهة أخرى يعيش المواطن العربي حالة من الاستهداف في حقوقه المدنية من حق التعبير والتنظّم والمشاركة السياسية وإبداء الرأي فيما يُفرض عليه من خيارات تنمويّة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة.... في ظل أنظمة سياسية تسلّطيّة تتّخذ مشروعيّتها من ولائها لقوى الهيمنة العالمية مُغلّف بمساحيق واهية وزائفة ومغشوشة لمقولة "الديمقراطية المحليّة". بالتالي يعيش المواطن العربي حالة من القهر المُركّز تضعه خارج النص وخارج السياق وخارج الواقع في خيارات تعنيه بشكل مباشر وهو وما يعودُ به القهقرى إلى وضع الرّعايا والقطيع.

في نفس هذا الاتّجاه يعيش المواطن العربي حالة من "الاغتصاب الحضاري" المزدوج من الداخل ومن الخارج. حيث تفرض على أجياله الشابة برامج تربويّة وتعليميّة وثقافية مغرقة

في التغريب والاجتثاث تضرب أصوله الحضارية وتعزله عن عاداته وتقاليده ودينه. وهذا الشقّ من المسخ الحضاري يمهّد الأرضية للاستهداف الحضاري الخارجي الذي يفرض عليه نماذج حضارية ومسلكيّة تمتدّ من الابستيمي إلى اليومي هدفها الرّئيسي تحويله إلى وعاء غير واعي يستقبل كل المشاريع التي تهدف إلى قولبة شخصيّته وتطويعها لكلّ ما يطرح عليه. فالمواطن العربي مطالب باستيراد النموذج الأمريكي في المأكل والملبس والمشرب والحُبّ والعلاقات الاجتماعية " المائعة" ... والمواطن العربي مطالب بالتخلي عن دينه بقوّة "قوانين مكافحةالارهاب" بدعوى أن كل ما له علاقة بالإسلام إرهابي بالضرورة .

هكذا تتعاضد مجموعة من الإستهدافات التي ترنوا إلى خلق مواطن معدم اقتصادياً، مقموع سياسيا، مفكّك اجتماعيا، مُنبتّ حضاريا... يقبل بكل شيء ولا يعترض على أيّ شيء ؟؟؟؟ فهل هذا هو الإنسان الذي سيحدث الإضافة النوعية في الواقع العربي ؟؟؟؟

ما يطال الأرض:

أما الأرض العربية – العنصر المحدد لمقولة الأمة وفقا لمنهج جدل الإنسان- فهي تعيش أيضا حالة من الاغتصاب المركّز والمزدوج.اغتصاب داخلي لمقدّرات الشعب وخيراته من قبل أنظمة "مافوية" ينخرها الفساد السياسي والاقتصادي والمحسوبيّة والرشوة واستغلال النفوذ و..و..و.. وتسيّرها عصابات "العائلات الحاكمة بأمرها" التي تعيش حالة من الرّغبة الجامحة للنهب وتكديس الثروات في البنوك الأجنبية في أقصر وقت ممكن، وتعيش أيضا- بصفة موازية- حالة من هوس توريث الحكم ضمن أنظمة جمهورية الشكل ملكيّة توريثيّة في العمق والحقيقة. أما الوجه الآخر لاستنزاف خيرات المواطن العربي فهو خارجي استعماري . من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين العربية إلى الاحتلال الأمريكي بالعسكر والدبابة في العراق العربي، وبالقواعد العسكرية في الخليج العربي، وبالمعاهدات العسكرية والاقتصادية فيما تبقىّ من الأرض العربية ،وبحروب "داحس والغبراء" ذات المضمون الطائفي والقبلي المقيت المدفوعة الأجر والسّلاح سلفا من أنبياء أنظمة "حقوق الإنسان " و " الديمقراطية" وحقّ الطوائف والقبائل والأفخاذ والبطون.... في تقرير المصير فيما تبقىّ من القليل الباقي ؟؟؟؟؟؟

هذه الحالة من الاستهداف المركّز والمتعدّد تضعنا أمام حقيقة لا مفرّ منها : إن حالة الاستهداف هذه لاتطال مضمونا اقتصاديا معزُولا يمكن تداركه بتعديل الخيارات والبرامج ، ولا تطال مضمونا حضاريا فحسب يمكن معالجته ، إنها باختصار لاتطال مضمونا واحدا يمكن توجيه الجهود نحوه لتداركه ورأب الصدع. بل إن الاستهداف يطال شرط الوجود الأنطولوجي العربي :* الإنسان باعتباره قائد حركة التطوّر وصاحب الإضافة النوعيّة في الواقع الاجتماعي مطلوب منه أن يكون خانعا مسلوبا مغتربا أو أن ينتظر المقصلة، مقصلة الاستبداد الداخلي أو مقصلة دبابات الاحتلال المُحمّلة بـ"عقوق الإنسان" و* الأرض باعتبارها العنصر المحدّد لمقولة الأمة، منهوبة بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني أو بالاحتلال الأمريكي أو بالِوكـالة بأنظمة فاقدة للشرعية والقبول الشعبي العربي. أمام هذا الوضع الذي يجعل من العدوان بفكّيْه استهداف للوجود القومي العربي في ذات جوهره تكون" المقاومة باعتبارها القتال الجماهيري المسلّح" أو النضال الجماهيري المدني الذي يرقى إلى مستوى ردّ العدوان ودحره دفاعا عن

الوجود هو الرّد الطبيعي على هذا العدوان. بالتالي فالمقاومة كخيار استراتيجي لمعالجة الواقع القومي العربي ليست مطلوبة لذاتها ، وليست خيارا لمجموعة بشرية تهوى الدم ، وليست "نكاية" في خيار آخر ممكن عربياً، ولكنها الخيار العلمي والعملي الذي يتفق مع حقيقة المشكل الموضوعي المطروح في واقع موضوعي مستهدف في كينونته. فالمقاومة من الحقل الثقافي إلى المجال السياسي إلى المستوى العسكري الصّريح هي الإمكان التاريخي والموضوعي لحلّ مشكل استهداف الوجود القومي العربي في ذات جوهره.

إن صحّ هذا وهو عندنا صحيح فإن القوى الجماهيرية المعنيّة بالتصديّ للقوى المعتدِية على شرطيْ الوجود العربي(الأرض / الإنسان)- ونحسب أن القوى الوحدوية العربية على رأس هذه القوى أو يجب أن تكون كذلك- هذه القوى التقدمية مُطالبة بضبط هُويّة برنامجها السياسي على حجم الرّهان التاريخي المطروح عليها. يعني أن القوى الجماهيرية الممتدّة على كل الأرض العربية والتي تزعم التقدمية والانتصار للجماهير مطالبة أن تكون المقاومة كخيار استراتيجي هي محور برنامجها الحركي وبوصلته، وهذه فرصتها التاريخية لإثبات صحّة ما ترفع من شعارات. ولا يهم هنا الخلفية الإيديولوجية لهذه القوى إن كانت وحدوية أو ماركسية أوإسلامية، ولا يهمّ أيضا إن كانت سرية أم علنية، بحسب الساحة العربية التي تنشط فيها.المهم أن يكون الإنتصارللمقاومة كخيار استراتيجي محسوم لديها من ناحية، وأن يتم تجسيد الانتصار لهذا الخيار في الواقع بالقدر الأقصى الذي تسمح به كل ساحة عربية في حدود إمكانيات هذه القوى. لماذا هذا الإلحاح على ضرورة الالتقاء على أرضية المقاومة كخيار استراتيجي في الواقع العربي بقطع النظر عن القاع الإيديولوجي للقوى الجماهيرية التي تزعم لنفسها التقدمية ؟؟؟؟؟ إن هذه المقاربة لاتضع في اعتبارها رهان إقناع القوى الجماهيرية التي تزعم لنفسها التقدمية في الوطن العربي بجدوى وصحّة الطرح القومي التقدمي العربي في معالجة الواقع العربي وان كانت لاتنفي إيمانها بصحة هذا الطرح. إن الإصرار – وهو موجود- في هذه المقاربة يطال فكرة أن تبنيّ المقاومة كخيار استراتيجي لمعالجة القضايا المصيرية عربيا(رفع الاستبداد الداخلي والخارجي، استعادة الأرض العربية وتوحيدها، استعادة المقدّرات العربية لصالح كل أبناء الشعب العربي...) هو الإمكان التاريخي الوحيد الذي يمنحها فرصة التحقق في الواقع مستقبلا رؤية وتصوّرا وبرنامجا. وبالتالي فإن مقولة التقدمية والانتصار للجماهير بالنسبة لهذه القوى هي اليوم على محكّ الاختبار الحقيقي.أليست التقدمية موقف من الواقع؟؟؟؟.

نريد أن نقول بأكبر قدر من الوضوح أن الموقف من المقاومة كخيار استراتيجي هو مقياس التقدمية في الوطن العربي انطلاقا من طبيعة العدوان الذي تتعرّض له الأمة العربية ـ كوحدة موضوعية من الأرض والشعب- كما توضّحه هذه المقاربة. وإن الموقف من المقاومة كخيار استراتيجي والانخراط فيها هو الذي يمنح القوى المنتصرة لهذا الخيار فرصة تحقيق رؤيتها وترجمتها في الواقع مستقبلا لأن الإجهاز على الوجود الأنطولوجي العربي كما تفهم هذه المقاربة العدوان عليه اليوم، يعني انتفاء هذه القوى بشرا وتصوّرات باعتبارها عربية بقوّة التاريخ بقطع النظر عن موقفها الإيديولوجي.

ولكن كيف نُنَفِّذُ خيارَ المقاومة كبرنامج في الواقع العربي؟؟؟ ماهي هوية إمكانياتها؟؟ ماهي هوية ساحتها ؟؟؟ ماهي هوية قواها البشرية والمادية؟؟؟ .... نطرح هذه الأسئلة وفي البال

تجربة أكثر من نصف قرن في مواجهة الاحتلال والاستيطان والاستبداد والاستغلال... والمقاومة العربية تستشهد ولا تنتـصر؟؟؟؟.

---

(١): "الأمة مجتمع ذو حضارة متميزة،من شعب معيّن مستقرّ على أرض خاصة ومشتركة تكوّن نتيجة تطوّر تاريخي مشترك". د. عصمت سيف الدولة : عن العروبة والاسلام.ص ٣٥. دار المستقبل العربي.

(٢)

الأسبَـاب المَوْضُـوعيّة

انتهينا في مقاربة سابقة إلى أن العدوان الذي تتعرّض له الأمة العربية- كوحدة موضوعية من الأرض والشعب- عدوان يمسّ شَرْطيْ وجودها: الأرض والإنسان. وبالتالي فهو يطال وجودها الأنطولوجي. بناء عليه فإنّ تبني المقاومة كخيار استراتيجي في الواقع العربي يمثل ضرورة تاريخية مُلحّة، ويمثل رداً طبيعيا على العدوان الذي يستهدف الوجود العربي. كما انتهينا إلى أن القوى السياسية التي تزعم لنفسها التقدمية والجماهيرية هي اليوم على محكّ الاختبار التاريخي في علاقة بما تطرح من شعارات.وإن تأكيد هذه الشعارات المرفوعة أو نَفْيها مرتبط أشدّ الارتباط بالموقف من المقاومة في الواقع العربي على اعتبار أنّها" القتال الجماهيري المسلّح" أو النضال الجماهيري المدني الذي يرقى إلى مستوى ردّ العدوان ودحره. بالتالي فالأسباب الذاتية /العربية لتبنّي خيار المقاومة، دفاعا عن الكينونة، تمثل حُجّة دامغة. ولكن الاكتفاء بهذه الأسباب لوحدها-رغم حُجّيتها- قد يجعل من المقاومة فرض عَيْن بالنسبة للبعض و"نافلة" بالنسبة للبعض الآخر؟؟؟ فيكون التيار الوحدوي العربي هو المَعْني الأوّل بالمقاومة اتّكالا على انحيازه الأيديولوجي لقوْمية الواقع، وقومية المشكل، وقومية الحلّ... وتكون القوى الأمميّة- الروحية والمادية- غير مَعْنيّة بالمقاومة إلاّ بالقدر الذي تصبُّ فيه المقاومة العربية في طاحُونها ألأممي .اعتبارا لهذه المُمكنات/العراقيل وغيرها من الفرضيات النظرية أو السياسية ... التي يمكن أن تجعل الأمة العربية تخسر أيّ جُهد من جهود أبنائها في معركة الدفاع عن الوجود، نضيف في هذه المُقاربة الأسباب الموضوعية التي تجعل من تبنّي المقاومة في الواقع العربي ضرورة حياة بالنسبة إلى كل القوى السياسية التي تنشط من مشرق الوطن إلى مَغْربه، ومقياس التقدّمية ، مهما كان الأساس الإيديولوجي الذي تصدرُ عنه.

فما هي ألأسباب الموضوعية التي تجعل كل القوى السياسية العربية، التي تزعم لنفسها التقدمية والجماهيرية، مَعْنية بالانخراط في المقاومة بنفس الدرجة؟؟؟

إذا كان من المفهوم –إيديولوجيا وحركياً- أن تكون القوى الوحدوية العربية معنية بالانخراط في المقاومة فإن القوى السياسية الأممية تملك أيضا –حسب مانعتقد- المُبرّر-الإيديولوجي والحركي- الكافي بتبنّي نفس الموقف ، لا تذيّلا للقوى الوحدوية العربية ، ولا مُجاملة ، ولا تطّيبيا للخاطر، بل انتصارا لموقف أصيل. وذلك اعتبارا لمُعطيات عديدة سنأتي عليها لاحقا.

. تنطلق هذه المقاربة من رؤية تعتقد أن الأمة العربية كوحدة موضوعية من الأرض والبشر تمثل الركن الأساسي لأي مشروع عالمي قادم. يعني أن الأمة العربية على حالة الوهن والاستهداف التي تعيشها وإن كانت غير قادرة على قيادة البشرية ـ مما يوفر في اعتقادنا جهد الحوار حول مضمون هذا المشروع ـ ، فإنها ستكون ضمانة سيادة هذا المشروع في

المدى القريب والبعيد أيضا بقطع النظر عن مضمونه . يعني إن القوى الدولية التي ستكون قادرة على السيطرة على الأمة العربية وافتكاكها هي التي ستنتصر مهما كان مضمون مشروعها. فالقوى التي ستحكم السيطرة على هذه البقعة من العالم ستكون قادرة عل حكم العالم والسيطرة عليه في المدى المنظور ، والمدى البعيد أيضا. لمـــــــاذا؟؟؟؟؟

من المعلوم أوّلا أن كل مشروع قومي أو أممي يحتاج إلى قاعدة ارتكاز ينهض عليها، منها يستمدّ انبثاقه ومنها يستمد ديمومته. فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية ولا تزال هي قاعدة ارتكاز المشروع الليبرالي في السياسة والاقتصاد على المستوى العالمي. كما كانت روسيا هي قاعدة ارتكاز المشروع الاشتراكي /اليساري. ويوم أن ضاعت قاعدة الارتكاز انهار المشروع تباعا وانصهر في عدوّ الأمس أو تذيّل له. ويوم تضيع قاعدة الارتكاز في المعسكر المقابل وتنهار سينهار المشروع الليبرالي العالمي مهما تغنّى "تقنيوّ المعرفة" بمقولة نهاية التاريخ.

أما النقطة الثانية، وهي مرتبطة بالأولى، فتتمثل فيما تمتاز به الأمة العربية كأمة متميزة وليست ممتازة. يعني أن لها خصائصها التي تصوغ هويتها الحضارية وتميزها عن بقية الأمم وذلك بحكم المراكمة والمعاناة التاريخية التي شكلت وجودها وصاغت خصائصها. فماهي هذه الخصائص التي تدعم القول بأن الأمة العربية لها هذا الدور الحاسم على مستوى صياغة مستقبل العالم بأسره ؟؟؟

-١/ : الموقع الجغراسياسي

يقع الوطن العربي في نقطة مفصلية من الجغرافيا الدولية تطل من الشرق على آسيا حيث إيران وبحر قزوين وحيث " المستعمرات القديمة " للمشروع اليساري الماركسي وأهمية هذه المنطقة في محاصرة أي إمكانية لاستعادة الحلم القديم مادامت ستصبح تحت سيطرة العم سام ، إضافة إلى ما تختزنه في باطنها من ثروات تمثل عماد حراك العالم من جهة وكمية تؤمّن السيطرة الأمريكية أمام حالة النفاذ التي تهدد عمر مثل هذه الثروات . كما أن الوطن العربي هو بوابة القارة الإفريقية ومفتاحها الشمالي بما تمثله هي الأخرى من إمكانات زاخرة (ذهب- حديد- نفط- ماس ...) وليس من الاعتباط في شيء أن تبرمج الولايات المتحدة- كقوّة عالمية- سياستها الإفريقية ولا تضع في الاعتبار شمالا إلا مصر . والوطن العربي هو أيضا البوابة الجنوبية لأوروبا الغربية التي تترصد الفرص لإفتكاك الزعامة إن أمكنها ذلك، ويمثل الوطن العربي عمقا استراتيجيا – جغرافيا، بشريا،اقتصاديا..- لها إذا استطاعت السيطرة عليه وعائقا استراتيجيا أيضا إن كان من نصيب القوى المضادة لها في السيطرة على العالم. (من المؤلم أن تظل خياراتنا كأمة في هذه المرحلة من التاريخ الولاء والتبعية. يعني أن نُفاضل بين الاستغلال الأمريكي والاروبي وطمع " البُوَيْهيّين الجُدد"، ولكنها الحقيقة المرة إلى حين ينهض أبناؤها). وطبعا لهذا الموقع الجغرافي العربي مكانة محددة للسياسة الدولية، وللتوازنات الدولية ولموازين القوى بل لوجهة العالم أصلا خاصة إذا عرفنا أن في هذه الرقعة الجغرافية المسمّاة الوطن العربي قناة السّويس ذات الدور الحاسم في الملاحة الدوليّة. بالتالي فالمكانة التي يحتلها الوطن العربي في جغرافية السياسة الدولية أساسية وحاسمة، والجهة الدولية التي ستكسب هذه المنطقة من العالم ستكون قادرة على قلب موازين القوى لصالحها.

إذ ستكون مطلّة على كل إفريقيا وعلى معظم آسيا وفي ظهر أوروبا ولكل هذا ايجابياته الحاسمة التي لاتخفى على ذي عقل.

-٢/: الثروات الباطنية:

هل من حسن حظ هذه الأمة أنها تمتلك كما هائلا من الثروات التي تدور عليها اليوم رحى الدنيا؟ أم من سوءه؟ . إن الأرض العربية تمتلك أهم احتياطي استراتيجي في العالم من النفط/الذهب الأسود الذي يمثل عصب الاقتصاد العالمي اليوم وبدونه تنتفي القيمة في عالم صناعي تُديرُ عجلته المحروقات.وبالتالي فإن هذه الأمة إن سيطرت على مقدّراتها ستكون قادرة على صيانة مستقبلها ومستقبل البشرية وإلا فإن القوة الدولية التي ستبسط عليها نفوذها هي التي ستدير العالم وفق مصالحها الخاصة ولكن بمقدّرات عربية؟؟؟. وإذا كان العمر الافتراضي للنفط لا يزيد على ٥٠ سنة قادمة كما تجتهد بعض المقاربات . فإن الأرض العربية مازالت تحمل في باطنها ثروة أخرى يقول الخبراء الإستراتيجيون إنها ستكون مِحْوَرَ حروب القرن القادم : إنها المياه. وفي الوطن العربي مائدة مائية مهمة جدا ستكون ذات أهمية قصوى في بلورة الاقتصاد العالمي مستقبلا . وبالتالي فإن السيطرة على هذه المنطقة من العالم سيجعل في أيدي القوى المهيمنة مفاتيح الاقتصاد العالمي اليوم بالنفط وغدا بالمياه وسوف ننتظر ما يمكن أن تخبّأه لنا الأرض العربية من ثروات والقوى المهيمنة من تحكّمٍ في مصائر الشعوب؟؟.

-٣/: العمق الحضاري:

إن الجانب الاقتصادي والموقع الجغراسياسي يدعمهما عامل آخر لايقل أهمية ونجاعة وقدرةً على تأكيد التصوّر المطروح وهو الأهمية القصوى للأمة العربية في تحديد مستقبل البشرية .هذا الجانب الجديد يتمثل في العمق الحضاري لهذه المجموعة البشرية المسماّة الشعب العربي. ففيم يتمثل هذا العمق الحضاري المزعوم؟؟. من المعلوم أن الأمة العربية هي أمة الإسلام . يعني أن الأمة العربية هي الأمة التي كوّنها الإسلام وأوجدها ولم تكن موجودة قبله. بالتالي لم يكن الإسلام مضافا حضاريا أغنى الشخصية الحضارية لهذه الأمة بل كان على خلاف ذلك مُكوّنا عضوياً لها ، صاغ هُويّتهَا الحضارية فاكتسبت خصائصها منه، لذلك تصعب التفرقة بين العروبة والإسلام في حياة المواطن العربي ، فالمرفوض الاجتماعي هو الحرام الديني،. ولقد كانت رسالة الإسلام إلى البشرية ذات شقين : الأول إطلاقي يتعلق بالذات الإلهية وفي هذا الجانب واصل الإسلام رسالة التوحيد - توحيد الذات الإلهية (لاإله إلا الله)- التي بدأتها قبله الديانات التوحيدية السابقة عليه - اليهودية والمسيحية- و الثاني تاريخي يتعلق بالإنسان وفي هذا الجانب كان الإسلام انتصارا للإنسان كائنا نوعيا فضّله الله على بقية الكائنات الأخرى فكان أن استخلفه في الأرض وسخّر له كل الوجود . قال تعالى:"وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا".(سورة الجاثية.الآية١٣)- نظرية الاستخلاف والسُّخْرة- بالتالي ومن هذه الزاوية فقد كان الإسلام ثورة اجتماعية قِوامها التوحيد والحرية. وبهذا نفهم الحديث عن المساواة بين جميع البشر ، ورفض العبودية والظلم، والانتصار للإنسان كائنا حرّا ومسؤولا. ولقد كان لتربية الإنسان العربي على هذه المبادئ الحضارية خلال فترة تاريخية طويلة انتقل فيها العرب من طور اجتماعي إلى طورٍ آخر أكثر تطوّرا إلى حين لحظة الاكتمال الحضاري /الطور القومي. كان لهذه التربية الدور الحاسم في تشكيل الشخصية الحضارية للإنسان

العربي . وهي شخصية تأبى الظلم وترفضه، تنتصر للإنسان.وإذا كانت الديانات السماوية الأخرى ترفض الظلم أيضا وتعاقب الظالم وتتوعّده بما يناسب أفعاله فإن الإسلام يعاقب الظالم ويعاقب المظلوم أيضا يوم أن يُظلم ويكون قادرا على ردّ الظلم ولا يردّه. قال تعالى:" إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنّا مستضعفين في الأرض.قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا".(سورة النساء. الآية ٩٧). إنه سبحانه -يقول المفكر الوحدوي العربي الدكتور عصمت سيف الدولة- لا يُحرّضُ على الهجرة ، بل يتحدىّ بها مُمَاحكات الأذلاّء. قبل الهجرة المقاومة . بكل حيلة وكل سبيل *. قال تعالى مكملا نذيره:"إلا المُستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ويهتدون سبيلا.فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم. وكان الله عفُواّ غفورا". (سورة النساء. الآية ٩٩/٩٨). هذه المواصفات الحضارية تمثل اليوم رافعة لعدم الانهزام الحضاري السريع أمام الغزو الحضاري للقوى المنتصرة السابقة والراهنة والتي تضع الإنسان خارج دائرة اهتمامها مهما بالغت في الحديث عنه (الماركسية والليبرالية). ولعلّه من المفيد الإشارة إلى أن مناهج التطوّر التي تنتصر للإنسان قد وُلدت من رحم الحضارة العربية المسلمة - منهج جدل الإنسان والمنهج التاريخي المقارن - . هذه المواصفات تمثل أيضا رافعة لقوى المُمانعة والمقاومة ورفضُ الانصياع للعدوان الخارجي مهما اختلّت موازين القوى . نعم نقول هذا الرأي ونصرّ عليه رغم حالة التخلف والتراجع والانكسار التي تسم المواطن العربي اليوم. لأن هذه الحالة- نقصد حالة التخلف والهوَان القومي- ليست ميزة حضارية عربية، يعني هي ليست من المميزات الحضارية للشخصية ا؟عر؟ية التي صاغها الإسلام وإلاّ لأصبح الحديث عن المقاومة ورفض الظلم والحلم بغدٍ أفضل عبثا لامعنى له ، بل إن هذه الحالة في الجزء الأكبر منها هي نتاج لحالة التخريب الممنهج والمركّز التي تعتمدها مؤسّسات الدولة الإقليمية ومؤسسات العدوان للشخصية الحضارية العربية المسلمة لإدامة سيطرتها على حياتها ومستقبلها. ولعلّنا نلاحظ أن القوى التي تتزعّم حالة الرفض هي التي استطاعت أن تفلت من التخريب المركّز للشخصية الحضارية العربية. بالتالي فالأمة العربية تمثل عمقا استراتيجيا حضاريا مُهمّا يضع الإنسان على رأس قائمة اهتماماته وأولوياته.

وتؤدّي السيطرة عليها إلى اتجاهَيْن متناقضَيْن: ١- الإضعاف الكبير لقوى الإنعتاق وحرمانها من عمق حضاري تحرّري مهم في مواجهتها لقوى الظلم والاستكبار/ القوى الرجعية. وهذا لايعني أن قوى الإنعتاق لن تنتصر في غيبة الأمة العربية كوحدة موضوعية من الأرض والشعب بعد ارتهانها للقوى الرجعية، ولكنه يعني خسارة المزيد من الوقت والمزيد من الجهد والكثير من فرص التحرّر والانتصار، هذا من ناحية. ٢- الانتصار للمشروع الحضاري العالمي التقدمي الذي يضع الإنسان على رأس قائمة اهتماماته في الداخل – داخل القوى المنتصرة /الرآئدة بما يعني من تحقيق للحدّ الأقصى من حاجياته /حريته، وفي الخارج في علاقة ببقية الأمم والشعوب بما يعنيه ذلك من احترام لها ولخصوصياتها الحضارية وعدم اغتصاب لمقدّراتها وفي ذلك أيضا مساهمة في تحقيق حاجيات شعوب تلك الأمم ولو بالكف عن التدخّل والعدوان. أليس هذا مطلب كل القوى التي تزعم لنفسها التقدمية والانتصار للإنسان؟؟

هذه الخصائص هي التي تجعل من الأمة العربية قاعدة ارتكاز مهمة في أيّ مشروع أممي يروم قيادة البشرية نحو مزيد من تحقيق حاجيات الإنسان، أو نحو تحقيق مزيد من إهانته وممارسة

الاستبداد عليه. وإن قوى الاستعمار العالمي ليست دبابات فقط، وليست مجنزرات فقط، بل عقول ومفكّرين استراتيجيين يفهمون في الجغرافيا السياسية وفي التكوين الحضاري للأمم، وفي العناصر التي تؤمّن نجاح وديمومة المخططات في مداها البعيد، وفي مهارة تصويب الضربات الإستباقية للمشاريع التي تناقضها تصوّرا وأهدافا وغايات. لذلك فإن العدوان على الوجود العربي مُجسّدا في شَرْطيْه- الأرض و الإنسان- هو تجسيد لهذا الفهم في جزء كبير منه، ومحاولة لتأمين نجاح المشروع الأمريكي الاستغلالي بالسيطرة على نقطة الارتكاز الأهم في لحظة تاريخية تبدو مواتية عربيا.

هذه جملة من المعطيات الموضوعية التي تجعل من الأمة العربية تمثل نقطة مفصلية في السياسة الدولية. وبالتالي فهي مهمة من ناحيتين :

* من ناحية خارجية في نظر القوى الدولية المسيطرة اليوم التي تعتقد في أهمية المنطقة العربية في إدامة سيطرتها على العالم رغم المضمون الاستغلالي والاستعماري والعدواني والرجعي لمشروعها ألأممي الذي يطلقون عليه اسم العولمة .

* من ناحية داخلية للقوى الوحدوية التي ترى أحقيتها في الحرية القومية والسيطرة على مقدّراتها واسترجاعها من أيدي الغاصبين، وللقوى الأممية – الروحية والمادية- التي ترنوا إلى مابعد الأفق القومي. بالتالي هناك سؤال ندرك أن فيه كثيرا من الاستفزاز ولكن لابد من طرحه: هل أن القوى السياسية العربية ذات الطرح ألأممي بمضمونه الديني أو المادي هي جـادّة فيما تطرح ؟؟؟ .اذا كان الأمر كذلك ، وهو مانعتقده، فإن هذه القوى السياسية العربية معنية في مرحلة أولى بإنجاز مهمة التحرير. تحرير الأرض العربية نقطة ارتكاز و الأمة القاعدة لمشروعها السياسي. وبالتالي فهي معنية بشكل أساسي بالانخراط في مشروع المقاومة العربية وتصفية ما دونه من المشاريع التي تناقضه منطلقا وأسلوبا وغايات ونتائج... ودون ذلك على هذه القوى أن تنتظر المصير الذي تستحقه وهو الفشل الأكيد حين تريد أن تجسّد تصوراتها الإيديولوجية على أرض الواقع وتتصادم مع القوى الرجعية ، الامبريالية والصهيونية العالمية. ذلك أن القوى التي ستكون قادرة على توظيف المقدّرات العربية – أرضا وبشرا وإمكانيات- هي التي سوف تنتصر مهما كان مضمون مشروعها. نقول هذا الكلام والعرب كأمة متخلفة مُعْتَدى عليها مُسْتَغَلّة، مُجَزّأة، ومُسْتَعْمَرة وموضع استهداف من قوى دولية مختلفة. وهي في المدى المنظور ستكون إما قاعدة ارتكاز لمشروع تحرير العرب وتحرير الإنسانية وإما جملة من الإمكانيات البشرية والمادية والحضارية الهائلة في جَيْب قوى الاستكبار العالمي، وقاعدة ارتكاز لتركيع العرب وتركيع الإنسانية وهذا متوقف على موقف القوى السياسية العربية التي تزعم لنفسها التقدمية والجماهيرية من المقاومة . فهل تفي هذه القوى السياسية العربية بمسؤوليتها التاريخية ولو من زاوية براغماتية بالنظر لما يمكن أن تقدمه لها الأمة العربية ففي حال انتصارها؟؟؟؟ أم أننا مازلنا نحتاج إلى مزيد التدليل على حتمية الانخراط في المقاومة العربية من قبل كل القوى السياسية الناشطة من مشرق الوطن إلى مغربه ؟؟؟.

---

* راجع "عن العروبة والإسلام" د.عصمت سيف الدولة.